

بسم الله الرحمن الرحيم

المخرج من الفتن

فضيلة الشيخ/ خالد بن عثمان السبتي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بابك، أما بعد:

لقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته من كل شر يعترض طريقها، فحذرنا -صلى الله عليه وسلم- من جميع الفتن الكبار والصغار.

وما ترك -صلى الله عليه وسلم- خبر طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لهم -صلى الله عليه وسلم- منه خيراً؛ كل ذلك شفقة على هذه الأمة من أن تضل أو تهلك وفيها كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وفي ذلك الشفاء الكامل، والدواء الناجع لكل المضلات والمشكلات العارضة التي تنتاب هذه الأمة.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- ناصحاً لأمته مشفقاً عليها: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضها)): أي يهون بعضها بعضاً، حيث تتابع حتى تكون الأولى أخف من الثانية.

يقول: ((وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى له))^(١): أي يضع نفسه في مكان إخوانه، فلا يقدم على أمر من الأمور إلا وقد وضع نفسه مكان هذا الأخ من المؤمنين، فلا يصل إليه بشيء من سوء والمكروه الذي يكرهه لنفسه.

ولقد أشرف النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة على أطم من أطام المدينة: أي على بناء مرتفع من قلاعها، فقال -صلى الله عليه وسلم- مخاطباً أصحابه: ((هل ترون ما أرى؟)): ومعلوم أن من علا أطم من أطام المدينة فإنه يشاهد بيوت المدينة جلية واضحة تحته.

¹ أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة - باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤) (ج ٣ / ص ١٤٧٢).

قال: ((هل ترون ما أرى؟)) قالوا: لا، قال: ((فإنني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر))²: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرى الفتن بين بيوت الناس كمواقع المطر. وأخبر -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- عن كل ما يتعلق بالفتن، حتى قال حذيفة -رضي الله عنه-: "والله ما ترك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قائد فتنة إلى انقضاء الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته"³. أخبرهم -صلى الله عليه وسلم- عن هؤلاء القادة والزعماء ممن يتزعمون هذه الفتن ممن يبلغ معه من الأتباع والمأمورين والمريدين ممن يبلغون ثلاثمائة فصاعداً، فكم هؤلاء الذين أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم؟

كما أخبر -عليه الصلاة والسلام- عن تنوع هذه الفتن، فمنها الكبار، ومنها الصغار؛ كما في حديث حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال -عليه الصلاة والسلام-: ((منها ثلاث لا يكذبن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها صغار ومنها كبار))⁴: أي فيها شيء من الشدة، ولكنها شدة تتقضي وليست كرياح الشتاء. قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط الذين سمعوه معي كلهم غيري⁵: أي أن كل من سمع مع حذيفة هذا الحديث عن الفتن من النبي -صلى الله عليه وسلم- قد ماتوا ولم يبق منهم حذيفة -رضي الله عنه- وكأنه يخشى أن تدركه شيء من هذه الفتن!

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل))، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: ((الهرج، القاتل والمقتول في النار))⁶: أي أن هذه الفتن يكثر فيها الهرج، وهو الاختلاف في الآراء، وتفاوت الأهواء، وتداخل الناس حتى يحصل القتال بينهم.

ثم بعد ذلك يكون لهؤلاء المقاتلين أحوال وصفها -صلى الله عليه وسلم-، حيث إن الواحد منهم ليدخل في القتال وليس له هدف واضح محدد، وليس له قضية يقاتل من أجلها، فلو سئل هؤلاء الأفراد المقتحمون في هذا القتال: ما هي أهدافكم؟ وما هي مطالبكم؟ لم يستطيعوا أن يفصحوا عن شيء من ذلك.

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- عن تقلب الناس في هذه الفتن ظهراً لبطناً كما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- الذي قال فيه -صلى الله عليه وسلم-: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم))⁷: أي لشدة

² أخرجه البخاري في كتاب: المظالم - باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٣٣٥) (ج ٢ / ص ٨٧١)، ومسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة - باب: نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥) (ج ٤ / ص ٢٢١١).

³ أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٣) (ج ٢ / ص ٤٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٩١٣)، وفي المشكاة برقم (٥٣٩٣).

⁴ أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة - باب: إخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) (ج ٤ / ص ٢٢١٦).

⁵ أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة - باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٢٣١ / ٤) رقم (٢٩٠٨).

إدلهامها وظلمتها وخفائها وسوادها وفلوحها، قال: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))^٦.

كما أخبرنا -صلى الله عليه وسلم- عن الحال التي نعيشها في هذه الأيام من تداعي أمم الكفر من كل حذب وصوب على هذه الأمة، كما في حديث ثوبان -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يوشك الأمم أن تتداعي عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها)): أي: كما يتداعي الآكلون على القصة التي يأكلون منها طعامهم، فقال قائل: من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! هل نحن قليل فيطمع عدونا بنا بسبب قلتنا؟

قال: ((بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءً غثاءً السيل)): والغثاء هو ما يحمله السيل من وسخ مما لا وزن له. قال: ((ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)): فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: ((حب الدنيا، وكرهية الموت))^(٧).

ومما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً عن تمايز الناس وتفاوت أحوالهم في هذه الفتن -وهذا من دلائل نبوته -عليه الصلاة والسلام- ما جاء في حديث أبي بكره -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بإسناد حسن أنه قال: ((ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة)): أي بأرض منخفضة يطلق عليها مدينة البصرة، وذلك قبل أن توجد البصرة، فهذا يدل على أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحدث عن الوحي عن الله -تبارك وتعالى-.

يقول: ((ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة، عند نهر يقال له: دجلة، يكون عليه جسر، يكثر أهلها، وتكون من أمصار المسلمين، فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء)): وبنو قنطوراء وصفهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((عراض الوجوه، صغار الأعين، حتى ينزلوا على شط النهر)): وهؤلاء هم الترك، كما فسر ذلك العلماء -رحمهم الله-، وهم التتار الذين نزلوا وخرّبوا بغداد.

قال: ((فيتفرق أهلها ثلاث فرق، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا)): أي أن فرقة من هذه الثلاث الفرق يعرضون عن المقاتلة هرباً منها وطلباً لخلص أنفسهم ومواشيهم، ويحملون على البقر فيهيمنون في البوادي ويهلكون فيها، أو يعرضون عن المقاتلة ويشغلون بالزراعة ويتبعون البقر للحرثة إلى البلاد الشاسعة فيهلكون.

يقول: ((وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا)): أي أن الفرقة الثانية يطلبون أو يقبلون الأمان والعهد من بني قنطوراء، فيدخلون تحت طاعتهم، ويبقون تحت لوائهم.

يقول -صلى الله عليه وسلم-: ((وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء)): أي يتركون أطفالهم ونساءهم خلفهم فيقاتلون الكفار فيقتلون في سبيل الله فأولئك هم الشهداء الكاملون.

^٦ أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) (ج ١ / ص ١١٠).

^٧ أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم - باب: في تداعي الأمم على أهل الإسلام (٤٢٩٧) (ج ٢ / ص ٥١٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٦٩).

قال بعض أهل العلم: وهذا من معجزاته -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنه وقع كما أخبر وكانت هذه الواقعة في صفر سنة ست وخمسين وست مائة⁹.

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنا قعوداً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكر الفتن، فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس": وفتنة الأحلاس سميت بذلك لشدة ملازمتها للناس كالحلس وهو الغطاء أو الشعار أو الثوب الذي يجعل على ظهر البعير، فإنه يلازمه ويلصقه.

فقال قائل: يا رسول الله، وما فتنة الأحلاس؟ قال: ((هي هَرَبٌ وَحَرَبٌ)): هَرَبٌ أي كرار يفر بعضهم من بعض لما بينهم من العداوة والمحاربة، وحرَب: الحرَب -بفتح الحاء والراء- نهب مال الإنسان وأهله وتركه لا شيء له، فالمراد فقد للأموال والذرية والنساء.

قال: ((ثم فتنة السراء)): والمراد بالسراء النعماء التي تسر الناس من الصحة والرخاء والعافية من البلاء والوباء، وأضيفت إلى السراء؛ لأن السبب في وقوعها ارتكاب المعاصي بسبب كثرة التمتع، أو لأنها تسر العدو.

((دخنها من تحت قَدَمَيَّ رجل من أهل بيتي، يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون)): دخنها يعني ظهورها وإثارها شبهها بالدخان المرتفع.

وإنما قال: ((من تحت قدمي رجل من أهل بيتي)): تنبيهاً على أنه هو الذي يسعى في إثارها، أو إلى أنه يملك أمرها.

وقوله: ((يزعم أنه مني)) أي في الفعل وإن كان مني في النسب، والحاصل أن تلك الفتنة بسببه وأنه باعث على إقامتها.

وقوله: ((وليس مني)): أي من أخلائي أو من أهلي في الفعل؛ لأنه لو كان من أهلي لم يهيج الفتنة، ونظيره قوله تعالى: **{إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}** [سورة هود] (٤٦) أو ليس من أوليائي في الحقيقة ويؤيده قوله ((وإنما أوليائي المتقون))

يقول -عليه الصلاة والسلام-: ((ثم يصطلع الناس على رجل كوركٍ على ضلع)): شبه ذلك الصلح بوضع ورك على ضلع إذ من المعلوم أن الورك لا يستقيم ولا يثبت على الضلع لثقل الورك ودقة الضلع، ومعنى ذلك أنها تستقر للناس ولاية وصلح لكنه على شيء من الضعف والوهن، لأنهم يجتمعون على بيعة رجل غير خليق للملك ولا مستقل به لقلة عمله وخفة رأيه.

⁸ أخرجه أبو داود في كتاب: والملاحم - باب: ذكر البصرة (٤٣٠٦) (ج ٢ / ص ٥١٦)، وحسنه الألباني صحيح الجامع (١٤١٣٠).

⁹ انظر كتاب عون المعبود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (ج ١١ / ص ٢٨٢).

قال: ((ثم فتنة الدهيماء)): وفتنة الدهيماء قيل لها ذلك؛ لشدة حلوكها ودهمتها وسوادها.

قال: ((لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لكمة، فإذا قيل انقضت تمادت)): أي لا تترك تلك الفتنة أحداً ((إلا لطمته لكمة)) أي أصابته بمحنة ومسته ببلية، وأصل اللطم هو الضرب على الوجه ببطن الكف والمراد أن أثر تلك الفتنة يعم الناس ويصل لكل أحد من ضررها، ((فإذا قيل انقضت تمادت)) أي: كلما ظن الناس أنها قد انقضت استمرت^(١٠).

قال: ((يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً)): أي حقيقة، أو كافراً للنعمة، أو مشابهاً للكفرة، أو عاملاً عمل الكافر، وقيل: المعنى يصبح محرماً ما حرمه الله ويمسي مستحلاً إياه^(١١).

((حتى يصير الناس إلى فسطاطين)): أي فرقتين وقيل: مدينتين، ((فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاك فانتظروا الدجال من يومه أو من غده))^(١٢).

لقد عشنا برهة من الزمان نعم بألوان من النعم في الأديان والأبدان والأموال؛ والناس يصدرون عن قول علمائهم، ثم ما لبث الناس حتى وقعت في الأمة حوادث عظام من نزول العدو في ساحتها، وموقف كبار علمائها، فتتابعت الفتن، وطمع فينا كل كافر ومنافق، وشمتم بنا العدو، واختلطت الآراء، وبرزت الأهواء، وظهرت قرون النفاق، وكلٌ يدعي وصلاً بليلي.

كأننا في سفينة قد مات ربانها من علمائها الكبار، ثم شمر كل أحد عن ذراعيه، وحسر عنها، يقول: أنا أقودكم إلى بر الأمان، لا يلتفت بعضهم لبعض، ولا يرى بعضهم لبعض حقاً ومنزلة، وعلماً ورأياً، فصار من يعلم ومن لا يعلم، ومن يفقه ومن لا يفقه، ومن له دين راسخ ومن له نفاق ظاهر فاضح؛ كلهم يتكلم في مصالح الأمة، وكلهم يقول: الطريق هاهنا، ويقول: "إليّ إليّ".

كلٌ يدعي وصلاً بليلي، واختلط الأمر على كثير من الناس، وصار كثير من العامة لا يميزون المحق من المبطل، وهذه هي حقيقة الفتن.

إن حقيقة الفتن أن يلتبس الحق فيها بالباطل، وأن يبقى خفياً على كثير من الناس، والسعيد من نجاه الله - عز وجل - من الفتن كما أخبر بذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: ((إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلى فصبر فواها))^(١٣).

قوله: ((واها)) معناه التلهف والتحسر أي واها لمن باشر الفتنة وسعى فيها، وقيل: معناه الإعجاب والاستطابة، أي ما أحسن وما أطيب صبر من صبر عليها^(١٤).

¹⁰ اعتد في شرح هذا الحديث على كتاب عون المعبود بتصرف (ج ١١ / ص ٢٠٩).

¹¹ تحفة الأحوذى (ج ٦ / ص ٣٦٤).

¹² أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٢) (ج ٢ / ص ٤٩٥)، وأحمد (٦١٦٨) (ج ٢ / ص ١٣٣)، واللفظ لأبي داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٩٤).

¹³ أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦٣) (ج ٢ / ص ٥٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٣).

¹⁴ عون المعبود (ج ١١ / ص ٢٣١-٢٣٢).

المخرج من الفتن:

إن المخرج من هذه الفتن يكمن في لزوم كتاب الله - عز وجل - وفي لزوم سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الفقه في دين الله - تبارك وتعالى -؛ فإن الإنسان إنما يؤتى بسبب جهله وقصور علمه فيفضل، أو أن يؤتى بسبب غلبة الهوى على قلبه فيفضل بسبب ذلك.

ولنا في حذيفة مثلاً وقدوة في العلم والمعرفة، فقد كان الناس يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الخير من أجل أن يفعلوه، وكان حذيفة - رضي الله عنه - يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الشر مخافة أن يدركه.

قال حذيفة بن اليمان: "كان الناس يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: ((نعم))، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: ((نعم، وفيه دخن))، قلت: وما دخنه؟ قال: ((قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر))، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: ((نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجايبهم إليها قذفوه فيها))، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: ((هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا))، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: ((تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم))، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: ((فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك))¹⁵.

وفي رواية: ((إن كان الله تعالى خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه، وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة)) قلت: ثم ماذا؟ قال: ((ثم يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره، ومن وقع في نهره وجب وزره وحط أجره)) قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ((ثم هي قيام الساعة))¹⁶. وفي رواية: قال: ((ثم يخرج الدجال)) قال: قلت: فيم يجيء به معه؟ قال: ((ينهر)) أو قال: ((ماء ونار، فمن دخل نهره حط أجره ووجب، وزره ومن دخل ناره وجب أجره وحط وزره)) قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ((لو أنتجت فرساً لم تركب فلوها حتى تقوم الساعة))¹⁷.

فهكذا عرف أبو حذيفة الفتن، لما سأل وتعلم من النبي - صلى الله عليه وسلم - عنها وما الذي يقيه منها، فقد جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - قدوته وأسوته ودليله - وهو كذلك - وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون على

¹⁵ أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٩٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة - باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧) (ج ٣ / ص ١٤٧٥).

¹⁶ أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٤) (ج ٢ / ص ٤٩٦)، وأحمد (٢٣٤٧٦) (ج ٥ / ص ٤٠٣).

¹⁷ سنن أبي داود - كتاب الفتن والملاحم - باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٧) (ج ٢ / ص ٤٩٨)، ومسنند أحمد (٢٣٤٧٣) (ج ٥ / ص ٤٠٣)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٣٩).

بصيرة وعلم، وله منهج وطريق لا يحيد عنه حتى يموت والله راض عنه، وحتى يقي نفسه شر فتن الدنيا والخزي والنكال في الآخرة.

ومما يقي من الفتن الثبات على المبادئ، فإن مبادئ دين الله هو الطريق المنجي -بإذن الله - عز وجل - من الفتن، ودين الله - عز وجل - منصور ومحفوظ، وقد أحسن القائل:

والدين منصورٌ وممتحنٌ فلا تجزع فهذه سنة الرحمن
ويقول ابن القيم -رحمه الله-:

وإذا تكاثرت الخصوم وصيحوا فاثبت فصيحتهم كمثل دخان
يرقى إلى الأرج الرفيع وبعده يهوي إلى قعر الحضيض الداني

وقد تكفل الله - عز وجل - بحفظ هذا الدين، وحفظ كتابه: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [(٩) سورة الحجر].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))**^(١٨).

فعليك أيها المسلم بالإكثار من العبادة والأعمال الصالحة في أوقات الفتن، لأن الناس ينشغلون عن العمل الصالح في ذلك الوقت؛ بسبب اختلاف آرائهم، ولانشغالهم بالأخبار وتتبعها.

عن أبي ثعلبة الخشني -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الفتن قال: **((فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم))**: أي مثل عمل الصحابة - قالوا: يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منهم؟ قال: **((أجر خمسين رجلاً منكم))**^(١٩).

وفي حديث معقل بن يسار عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((العبادة في الهرج كهجرة إلي))**^(٢٠)، والمقصود بالعبادة في الهرج أي العبادة عند الفتن وكثرة اختلاف الآراء والأهواء؛ وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا الأفراد.

¹⁸ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في كتاب: الإمارة - باب: قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم))** برقم (١٩٢٠) (٣ / ١٥٢٣).

¹⁹ أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم - باب: الأمر والنهي (٤٣٤١) (ج ٢ / ص ٥٢٦)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن - باب: ومن سورة المائدة (٣٠٥٨) (ج ٥ / ص ٢٥٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن - باب: قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ}** [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٤) (ج ٢ / ص ١٣٣٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٧٢): (صحيح لغيره)، وقد ضعف رحمه الله -بقية ألفاظ هذا الحديث إلا أنه صحح بعضها منها ما ذكرنا، ومنها -كما في السلسلة الصحيحة برقم (٤٩٤) (ج ١ / ص ٨٩٢) **((إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم))**، قالوا: يا نبي الله! أو منهم؟ قال: **((بل منكم))** [أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير (٢٨٩) (ج ١٧ / ١١٧)، وفي الأوسط (٣١٢١) (ج ٣ / ٢٧٢)].

²⁰ أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة - باب: فضل العبادة في الهرج (٢٩٤٨) (ج ٤ / ص ٢٢٦٨).

ومما يوصى به في أوقات الفتن أن يأخذ الإنسان ما يعرف، وأن يترك ما ينكر، فالزموا ما تعرفون من دين الله - عز وجل - فقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: شبك النبي -صلى الله عليه وسلم- أصابعه وقال: ((يا عبد الله بن عمرو، كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس))؛ أي صارت أمورهم متداخلة، قال: قلت: يا رسول الله، كيف ذلك؟ قال: ((إذا مرجت عهودهم وأماناتهم وكانوا هكذا))، وشبك يونس بين أصابعه يصف ذلك، قال: قلت: ما أصنع عند ذلك يا رسول الله؟ قال: ((اتق الله -عز وجل- وخذ ما تعرف ودع ما تتكر، وعليك بخاصتك وإياك وعوامهم))^{٢١}.

وفي رواية أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كيف بكم وبزمان -أو- يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا)) وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: ((تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تتكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم))^{٢٢}: والحثالة كحثالة الشعير والتمر وهو القشر وما لا يعبا به منه.

وفي رواية: "بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكر الفتنة [أو ذُكرت عنده] فقال: ((إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا)) -وشبك بين أصابعه- قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: ((الزم بيتك وأملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تتكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة))^{٢٣}.

وفي حديث أبي ذر قال -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا ذر)) قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، وقال فيه: ((كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟)): أي أن الإنسان يدفن بمقابل أجرة عبد يعطى لهذا الدافن أو الحافر لقبره؛ لكثرة القتلى، أو اشتغال الناس عن دفنهم.

قلت: الله ورسوله أعلم! أو قال: ما خار الله لي ورسوله، قال: ((عليك بالصبر -أو قال-: تصبر)): أي تصبر على أمر الله، وتجتنب نهيه، وتحبس نفسك عن الدخول بالفتنة.

ثم قال لي: ((يا أبا ذر)) قلت: لبيك وسعديك، قال: ((كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟)): وأحجار الزيت مكان معروف في المدينة، وقد وقع مصداق ما أخبر به -صلى الله عليه وسلم-.

قال: ما خار الله لي ورسوله، قال: ((عليك بمن أنت منه)) قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟، قال: ((شاركت القوم إذن))، قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: ((تلتزم بيتك)) قلت: فإن دخل علي بيتي؟،

²¹ أصله في البخاري في كتاب: أبواب المساجد - باب: تشبيك الأصابع (٤٦٦) (ج ١ / ص ١٨٢) إلى قوله: ((في حثالة من الناس))، وأخرجه بتمامه الإمام أحمد في المسند (٦٥٠٨) (ج ٢ / ص ١٦٢).

²² أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم - باب: الأمر والنهي (٤٣٤٢) (ج ٢ / ص ٥٢٧)، وابن ماجه في كتاب: الفتن - باب: التثبت في الفتنة (٣٩٥٧) (ج ٢ / ص ١٣٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨١٨٥).

²³ أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم - باب: الأمر والنهي (٤٣٤٣) (ج ٢ / ص ٥٢٧)، وصحيح الجامع (٥٧٠).

قال: ((إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألقي ثوبك على وجهك يبيء بإثمك وإثمه))^(٢٤): أي لا تقاقل من أجل دفاعك عن نفسك.

وفي حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الفتنة قال: ((إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكشروا بزيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ي ابن آدم))^(٢٥).

يشير -صلى الله عليه وسلم- إلى قول الآخر من ولد آدم: **لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** {سورة المائدة: ٢٨-٢٩}.

كما أوصى -صلى الله عليه وسلم-، ف الحديث الآخر: ((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعد به))^(٢٦).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: ((إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إيل فليلحق بإيله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه)) قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم تكن له إيل ولا غنم ولا أرض؟ قال: ((يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟)) قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إلى إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه، أو يجئ سهم فيقتلني؟ قال: ((يبيء بإثمك وإثمه ويكون من أصحاب النار))^(٢٧).

وعن أبي سعيد -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن))^(٢٨). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: ((ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده))^(٢٩).

²⁴ أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١) (ج ٢ / ص ٥٠٢)، وأحمد (٢١٣٦٣) (ج ٥ / ص ١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨١٩).

²⁵ أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٥٩) (ج ٢ / ص ٥٠٢)، وابن ماجه في كتاب: : الفتن - باب: التثبت في الفتن (٣٩٦١) (ج ٢ / ص ١٣١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٤٩).

²⁶ أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: تكون فتن القاعد فيها خير من القائم (٦٦٧٠) (ج ٦ / ص ٢٥٩٤)، ومسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة باب: نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦) (ج ٤ / ص ٢٢١١).

²⁷ أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة - باب: نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٧) (ج ٤ / ص ٢٢١٢).

²⁸ أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: التعرب في الفتنة (٦٦٧٧) (ج ٦ / ص ٢٥٩٧)،

وجاء علي -رضي الله عنه- في وقت القتال مع أهل الشام إلى أبي بن كعب -رضي الله عنه- ودعاه إلى الخروج معه إلى القتال، فقال أبي: "إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن أتخذ سيفاً من خشب فقد اتخذته، فإن شئت خرجت به معك، فتركه علي رضي الله عنه"^(٣٠).

ومما ينجي من الفتن الحذر من الأئمة المضلين الملبسين على الناس دينهم، خاصة وأن هؤلاء يرفعون عقيرتهم عادة في أوقات الفتن، فقد جاء في حديث يزيد بن عميرة وكان من أصحاب معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أنه قال: "كان لا يجلس مجلساً للذكر -يعني معاذ- إلا قال حين يجلس: "الله حكم قسط، هلك المرتابون" فقال معاذ بن جبل يوماً: "إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والعبد والحر، والصغير والكبير، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، وما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق"، قال -يزيد بن عميرة -: قلت لمعاذ: وما يدريني -رحمك الله- أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق يقول كلمة الحق؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال ما هذه؟، ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله يراجع، وتلقى الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً"^(٣١).

فقد يخطئ العالم، وقد يخطئ الفقيه، ومن أمارة ذلك أن يأتي بشيء غريب شاذ تستغربه الأسماع، وفي حديث حذيفة -رضي الله عنه-: "كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير وكنت أسأله عن الشر.."، إلى أن قال -صلى الله عليه وسلم- بعدما سأله حذيفة: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: ((نعم وفيه دخن))، قلت: وما دخنه؟ قال: ((قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتكر))، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: ((نعم دعاة على أبواب جهنم من أجا بهم إليها قذفوه فيها))، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: ((نعم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا))، قلت: يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: ((تلزم جماعة المسلمين وإمامهم...)) الخ الحديث^(٣٢) وفي رواية: ((قوم لا يستنون بسنتي، وسيكون فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين، في جثمان إنس))، قلت: كيف أصنع يا رسول الله؟ الحديث..^(٣٣).

²⁹ أخرجه أبو داود في كتاب: الفتن والملاحم - باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٩) (ج ٢ / ص ٤٩٩)، وأحمد (٩٦٨٩) (ج ٢ / ص ٤٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٥).

³⁰ أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن - باب: اتخاذ سيف من خشب في الفتنة (٢٢٠٣) (ج ٤ / ص ٤٩٠)، وابن ماجه في كتاب: الفتن - باب: التثبت في الفتنة (٣٩٦٠) (ج ٢ / ص ١٣٠٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٩٩).

³¹ أخرجه أبو داود في كتاب: السنة - باب: لزوم السنة (٤٦١١) (ج ٢ / ص ٦١٢).

³² أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٩٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة - باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧) (ج ٣ / ص ١٤٧٥).

³³ صحيح مسلم في كتاب: الإمارة - باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧) (ج ٣ / ص ١٤٧٥).

فهؤلاء يدعون الناس إلى أبواب جهنم، يشككون في ثوابتهم، وفي عقيدتهم، وفي دينهم، وفي أئمتهم وعلمائهم قديماً وحديثاً، يشككونهم في مناهجهم التعليمية، ويشككونهم بكل قيمهم، وما يحترزون عليه. وأخيراً: علينا أن نكثر من دعاء الله - عز وجل - وسؤاله التثبيت، وأن يجنبنا مضلات الفتن.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مقلب الأبصار ثبت قلوبنا على طاعتك، اللهم ثبتنا على الإيمان، وتوفنا على الإيمان، اللهم توفنا وأنت راضٍ عنا، اللهم أصلح لنا شأننا كله، دقه وجله، اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن، اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن، اللهم أصلح أحوال المسلمين شبيهم وشبابهم، كبارهم وصغارهم، اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، يا رب العالمين

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.